

المرأة ولىة.. و أنثى قراءة لشي نص لابن عربي

د. سعاد الحكيم — لبنان.

يقولون زائرين، وتستمر تجربته الروحية مداداً لكتابات عارفين عالمين، ومتطلعين متعلمين.

ومابين عوام يعتقدون ولايته، ويتبركون بزيارته، وبين خواص أرباب تدوين وتسطير، يغمسون أقلامهم في تصورات فكره ولحظات تجربته، مسافة لا يردمها إلا تفرد شخصه، الذي استطاع وصل القمة بالقاعدة.. فارتقى عوالي مراتب الخصوصية، دون أن يفارق جموع عوام المسلمين.

لذا، يكون الرجوع إلى نصه وإلى حياته، وخاصة في موضوع المرأة، هو اطلاع على موقف عالم إسلامي كبير، اتحد فكره بوجوده، بحيث إننا كثيراً ما نكمل بحثاً لفكرة من أفكاره بالنظر في تفاصيل حياته.

واقترح قراءة للمرأة في نصوصه وحياته من منطلقين، وبموجبهما سوف أقسم بحثي:

المنطلق الأول، ننظر إلى المرأة — الفرد، ونبحث مفاهيم ابن عربي وتجاربه بخصوصها، كذات وشخص له هوية وإمكانات، وله كمال يخصه في مقابل كمال الرجل.

المنطلق الثاني: ننظر إلى المرأة — الآخر، ونقرأ نصوص ابن عربي وحياته حول المرأة في علائقها، وفي وجودها كجزء له دور في شبكة علاقات تمتد رقائقتها منها للتصل بالوجود بأكمله.

1 - الأهلوية الروحية.. ولاية المرأة:

يافعاُ خدم ابن عربي بنفسه سنين، امرأة من العارفات بإشبيلية.. لها حال مع الله، هي فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي، والتي تقول عن نفسها2-، إِنَّ الله اعتنى بها، وجعلها من أوليائه واصطنعها لنفسه.

ومما يلفت النظر قول ابن عربي أنه خدمها سنين، فهو - بحسب معرفتنا بمسار حياته الصوفية - لم يخدم رجلاً من العارفين سنين. كما أنه لم يعترف لرجل من العارفين بالولادة عليه، ولادة روحية معنوية، هي وحدها ناداها بقوله: يا أمي.

وإذا توقفنا عند تعليمها له نرى بدايات وحدته الوجودية، تقول لابن عربي: "عجبت لمن يقول إنه يحب الله ولا يفرح به وهو مشهوده، عينه إليه ناظرة في كل عين، لا يغيب عنه طرفه عين3-".

.. وعندما تسأله: "ياولدي ماتقول فيما أقول، يجيبها: يا أمي القول قولك4-".

بالإضافة إلى تعاليمها نرى ابن عربي يعرف مقامها ويعلمه.. عرف مقامها عندما أخبرته أن فاتحة الكتاب تخدمها5-، وعلم مقامها عندما قرأت فاتحة الكتاب لأمر أراسته وقرأ معها، فإذا بها تتشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية، وتطلب منها أن تفعل كذا أو كذا6-....

وعندما تكلم ابن عربي على علم الحروف، وهو علم الأولياء، ذكر خدمته وانتقاه بهذه السيدة الولية7-، وأكد أنها كانت من أكابر الصالحين، تتصرف في العالم، ويظهر عنها من خرق العوائد بفاتحة الكتاب خاصة كل شيء.. وكانت تظن أن هذا متاح لكل أحد، بل وتعجب ممن يعتاص عليه شيء، وعنده فاتحة الكتاب. وتقول لابن عربي: لأي شيء لا يقرؤها فيكون له ما يريد.

ومع هذه الولية العارفة، التي تتصرف في العالم، ورأى منها ابن عربي عجائب8-، أقر ابن عربي بولادته الثانية وقبل نسبته إليها، وأفسح مجالاً في نصه لنسب الدين ونسب الطين، لولد الدين وولد الطين.. كانت تقول له، ويقرأها على ذلك: أنا أمك الإلهية ونور أمك الترابية9-.. تأسيساً على ولادته المعنوية من أم روحية يقر بظهورها بوجهي الولاية: العرفان والتصريف في الأكوان.

تدرج ابن عربي لأن تتكون لديه قناعة بأنه لا مانع تكوينياً أو كونياً من وصول المرأة إلى أعلى مراتب الولاية، وإن لم يقع ضمن خبرته لقاء بامرأة في موقع القطب، صاحبة الزمان، الغوث الخليفة. فالنساء والرجال، لديه، يشتركون في جميع مراتب الولاية حتى في "القطبية"؛ فكل ما يصح أن ينال الرجل من المقامات والمراتب والصفات يمكن أن يكون لمن شاء الله من النساء10-.. هذا النص لابن عربي يجعل طريق الولاية أمام المرأة مفتوحاً، لا سقف يحدّها إلا مرتبة النبوة وشخص النبي (صلى الله عليه وسلم)، فالمرأة وإن لم تظهر بالفعل في دنيا الناس في موقع القطبية إلا أنه في قدرتها ذلك، وبالتالي في عالم الروح تتساوى الحظوظ بين المرأة والرجل، وينعكس هذا التساوي في نظرة أعلام الصوفية لها.

بداية، يرى ابن عربي أن الإنسانية هي حقيقة الإنسان، وهي واحدة في الناس جميعاً، وهي الأصل، أما الذكورة والأنوثة فهما عارضان، كل واحد منهما بمثابة جملة صفات تجري على قابل الذات.. فكل من كان في موقع المؤثر والفاعل فهو رجل وإن كان امرأة. وأيضاً كل من وجب عليه وجوباً شرعياً أن يطلب من يأخذ عنه علمه فهو رجل، سواء كان ذكراً أم أنثى 15- . هنا يؤكد ابن عربي على كون المرأة بحكم خلقها وتكوينها مساوية للرجل في الشروط الإنسانية، قابلة لكل النشاطات العقلية والفعاليات الإنسانية الذكورية.

ويعطي بلقيس مرتبة فقهية.. ويرى أنها عندما أسلمت لم تنتقد لسليمان، بل ظلت متحررة في اعتقادها من أتباع رسول أو إمام، اعتقاد متحرر من الوسائط، مباشر كاعتقاد الرسل تماماً، وذلك حين قالت: "أسلمت مع سليمان لله رب العالمين"، فلم تنتقد لسليمان جاعلة منه مصدر علمها ومعرفتها ودينها، بخلاف فرعون حين قال: "رب موسى وهارون" 16- .

ونستفيد من طرح ابن عربي لمثال بلقيس، هذه الشخصية القرآنية، لنقول نحن أيضاً: إن نموذج بلقيس مثال على أنه عندما أفسح المجتمع المجال أمام المرأة برزت.. ملكت وحكمت.. ومما يلتفت النظر أننا لم نلاحظ في القرآن إشارة استنكار أو كراهة لملك المرأة أو حكمها.. وبلقيس ظلت موضوعية وواعية لشروطها وموقعها كسيدة قومها أمام سليمان، وهو من هو في زمنه: فهي أولاً حين رأت عرشها لم تجزم بأنه هو، ولم تتف بأنه هو، وقالت: "كأنه هو".. جواباً ينسجم في نسبته مع أكثر فلسفاتنا وموضوعياتنا المعاصرة. وهي ثانياً حين أسلمت، حافظت على موقعها كأولى في قومها، فلم تنتقد لسليمان لتكون تابعة، وبالتالي الرجل الثاني وهي ملكة، فقالت: "أسلمت مع سليمان".. فهذا المثال، ومثال السيدة عائشة - رضي الله عنها - التي وصى النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالأخذ عنها، يزرحان أطراف الستار عن أهلية المرأة وموضوعيتها ووعيتها لشروطها.. ويجعلاننا نؤكد مع ابن عربي، أن الذات الإنسانية واحدة، تستقبل الصفات بحسب طاقاتها الفردية، وتوجهات تربيته، وتجاربها الحياتية.

الأهلية السياسية:

عندما قال ابن عربي بإمكانية وصول المرأة للخلافة الكونية، أي تكون رأس الدولة الباطنة..، طرح أهليتها السياسية، ليس بالانتخاب الشوري بل بالتعيين الإلهي.. فهي، قد تكون، خليفة الله في أرضه ونائبة رسول الله في أمته.. إذن، بمقتضى نص ابن عربي، لا مانع عقلياً أو نفسانياً في أصل فطرتها، ولا عائق في طبيعة حياتها، يمنعها من الخروج من دائرة خصوصيتها لمباشرة حوائج العالم وأمور الناس.. ونرى أنه لا يقدح في قوله هذا كون رأس الدولة الباطنة مستوراً مصوناً من أعين الخلق، والخليفة الظاهر محور وجود المسلمين الدنيوي.. فهذا أمر يُبحث على مستوى مظهر المرأة وليس أهليتها..

ابن عربي هنا، في نظره إلى أهلية المرأة، يسترجع ويكمل مسيرة بداياتنا الإسلامية في زمن

النسبة والصحابة، حين كانت مشاركة المرأة العلمية والسياسية واضحة معلنة ومباشرة. وأنت عصور الظلم والإظلام، وتراجع دور المرأة الحرة في الحياة العامة أمام دخول الجوّاري المملوكات - بالشراء أو السبي - ساحات الفنون وبلاطات السلاطين وسياساتهم. وأدخل هذا معه نمطاً جديداً من العلاقة غير المتكافئة مكانة بين الرجل والمرأة، بين قويّ مالك حاكم، وبين ضعيف وصولي مآكر، يتوسل بأي نهج ليكون ويستمر، وينشئ شبكة علاقات مصلحة داعمة في غياب عزوة وأهل وعشيرة.

استشهد ابن عربي على مراتب الولاية المفتوحة للمرأة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: النساء شقائق الرجال.

وعندما ننظر إلى مسألة المرأة اليوم، إلى أهليتها العلمية والإدارية السياسية — ولا نقصد بالضرورة من الأهلية السياسية أعباء خلافة المسلمين — فنحن إنما نستعيد ونحيي من خلال نص إسلامي شامل، هو نص الشيخ الأكبر، أصولنا المنسية المؤودة تحت وطأة سنين غربت الإسلام في حضارات تكاد تتناقضه في سلم قيمها. تجعل قيمة الرجل في كونه واصلًا ناجحًا قويًا منتصرًا لا في كونه صادقًا أمينًا شهماً أبياً شجاعاً.. لذا، لابد من إعادة فتح ملف المرأة والرجل معاً، والتأكيد على أن أهلية الرجل ليست في ذكورته، وإنما في اكتمال صفات الرجولة الإنسانية فيه.

||: المرأة - الآخر

المرأة الإنسان والمرأة الأنثى:

تناولنا في القسم الأول كينونة المرأة كإنسان، ورأيناها تدخل عالم الروح، وتؤكد أهليتها لممارسة العلم والحكم في الغيب والشهادة.. وتوضحت رؤية ابن عربي للكمال الإنساني – المتاح بعد ختم النبوة – على أنه واحد مفتوح للرجل والمرأة، وإن كانت الانتماءات الذكورية في النص تجعلنا نشعر أن المرأة في هذا المجال لم تفعل سوى أنها دخلت حقل الرجل، وشاطرته كماله الذكوري، إن أمكن التعبير.

أما في هذا القسم الثاني فسوف نبحث كينونة المرأة كأنثى، لنتعرف على خصوصية الكمال الأنثوي ورتبة الأنوثة، في مقابل الكمال الذكوري ورتبة الذكورة. ونرى في المقابل هنا، كيف يدخل الرجل حقل المرأة ليشاطرها أنثويتها ويتحقق برتبتها.. فلكل رتبة وجودية كمالها الذي هو عين استقامتها على صراط حقيقتها الخاصة، من منظور ابن عربي.

وجرياً على منهجنا في قراءة ابن عربي، على أنه هو هو على مستوى الفكر والوجود، سندخل بين أفكاره حول المرأة وبين سلوكه تجاهها وعلاقته بها، حتى نتوضح أبعاد رؤيته لها، في البنى المتعددة التي هي جزء منها، وتمارس فيها دوراً ووظيفة.

ونحصر كلامنا بالعلاقين الأهم بين الرجل والمرأة، واللتين تركزهما عمليتان هامتان في تاريخ الوجود، بل يقوم عليهما الوجود، هما: عملية الخلق والإيجاد، وعملية التوالد والتكاثر؛ حيث تظهر مع العملية الأولى المرأة - المكمل الوجودي للرجل، وتظهر مع العملية الثانية المرأة - المنفعل الوجودي للرجل.

1 - المرأة - الآخر، المكمل الوجودي:

استوحش في الجنة آدم، أول هذا الجنس الإنساني، إذ لم يجد من يسكن إليه، لأن الأنس لا يكون إلا بالجنس، تبعاً لتصورات الشيخ الأكبر..
وخلق الله حواء، أوجدها من آدم.. فارقت بدنه وهي قطعة منه، فظل حنينه إليها - طوال أجيال الرجال - حنين الكل إلى جزئه المكمل لوجوده، وظل حنينها إليه - طوال أجيال النساء - حنين الغريب المفارق لوطنه.

قبل ابن عربي وُظف خلق المرأة من الرجل، في مجال العلاقة بينهما، بتوجهات دونية وتهميشية واستعلائية.. ولكن مع ابن عربي عادت رسالة القرآن للظهور، ويمكننا متابعة رؤيته والقول بأن الرجل سيظل يشكو نقصاناً، مالم ترجع المفارقة إلى مكانها من بدن ذاته 17-، وستظل المرأة تشكو غربة إن خرجت أو أخرجت وراء حدود أرض رجلها.

ولننظر في حياة ابن عربي، لنرى هل تعامل مع المرأة على أنها جزءه الوجودي، هذه الواحدة التي بها، وبها فقط، يشعر بامتلاء كينوني، أم أن كلامه في الحنين والجزء مجرد تنظير في الخلق، على حين أن حياته مفتتة الكيانات يتشاطر لحظاتها مع كثيرات؟

نعرف أنه تزوج أكثر من واحدة وأنجب، ونعلم أنه أحب حباً عميقاً وهو في الثامنة والثلاثين، نظام بنت الشيخ مكين الدين الأصفهاني، ومن أجلها نظم الشعر ونطق باللغز والرمز.. فأين موقع نظام من نسائه، وكيف يظل منسجماً مع قوله بالجزء المكمل بوجود هذا التعدد؟ هل عاش مثلاً امتلاءه الكينوني مع كل واحدة على شكل لحظات متوالية، يتغير فيها شخص المكمل الوجودي فقط؟ أم أن المرأة - الآخر الوجودي هي عنده مجرد فكرة لتفسير الخلق، وترجمة القلق وحلم يحركان معاً الإنسان في مسار بحث وتفتيش دائمين؟

وعلى ضوء النظر في تجارب أشخاص الإنسان، المتنوعة والمتشابهة معاً؟ نقارب ابن عربي، الذي كثيراً ما نفهمه على ضوء مسار وجودنا، وكثيراً أيضاً ما نفهم أنفسنا على ضوء مسار وجوده، لنقول إن حياة كل إنسان تنفتح على إمكانييتين في العلاقة بالآخر: الواحد والكثير.. وقد تتحقق هاتان الإمكانيتان، وأحياناً كثيرة تتحقق واحدة منهما دون الأخرى. قد يحدث مثلاً أن تحتل كينونة إنسان، في مطلع حياة آخر، موقع الواحد المكمل الوجودي، عندئذ تتعطل الإمكانية الثانية في كينونته، لانتفاء الحاجة إليها، والتي هي إمكانية الكثير.. وأيضاً قد يعيش إنسان حياته يتذوق كأساً إثر كأس، دون أن يرتوي، يتقلب في أعداد الكثير، من عدد إلى عدد دون أن يلتقي بمكمّله

الوجودي. أو قد يلتقي بالواحد الفرد الذي به فقط يشعر بالامتلاء، وتتغني عندها فقط حاجته إلى غيره، بل لا غير يمكنه حقيقة الحلول محله.

أما إذا لم يلتق الإنسان فعلاً بآخره الوجودي فتظل إمكانية علاقة الواحد ثابتة في القوة، لا تخرج إلى الفعل بل تتلامح أحياناً في لحظات تؤهم سرعان ما تعبر.

فعلى ضوء علاقة الواحد والكثير في حياة إنسان نظن أن نظام الزوجة المفضلة لابن عربي، قد احتلت موقع المرأة، أي الواحد - الفرد، والباقيات المذكورات في نصوص ابن عربي، والواضحات النسبة إليه، هن نساء، أي الكثير - المتوالي أو المتجاور.

ولكن هل في استطاعة الإنسان أن يمنح باختياره وإرادته مقام الواحد - الفرد في وجدانه، لمطلق إنسان يرى أنه يناسبه مقاماً أو أوضاعاً. أم أن الموضوع قدر لا إرادي ويشبه إلى حد بعيد علاقة المفتاح بالقفل؟. أقول: من منطلق أخلاقي اجتماعي أميل إلى القول الأول الكافل لاستمرار مؤسسة الأسرة، ومن منطلق معرفي بحث يرصد تجارب الناس المنفلة من الروابط، لأسباب شتى مشروعة وغير مشروعة، ويرصد تقلباتها في صيرورة الزمن، أراني أقول بالقول الثاني، فكثيراً ما كنت أرى أشخاصاً تقارب عدة، وتظن في كل مرة السراب ماءً، ولكن لا فائدة، لا يفتح عالم التوحد إلا بإنسان مخصوص، تنطبق صفاته مع صفاته انطباق الكف مع الكف، وانطباق أسنان المفتاح مع القفل.. وإلا سيظل الواحد منا خارج جنته ودائم الحنين إليها والبحث عنها.. والتفاتة إلى الوصف الذي يعطيه ابن عربي لنظام في مقدمة "ترجمان الأشواق" تؤكد مصداقية ما أسلفنا، فهي وحدها امرأته، ولم تكن يوماً مجرد عدد في جملة نسائه.

وانسجاماً مع رمز المفتاح نقول أنه - استناداً إلى وصف ابن عربي لنظام - في استطاعتها، بحكم شمولية كينونتها المطابقة لشمولية كينونة ابن عربي، أن ترافقه في عوالمه كلها، عالم الروح والعقل والنفس والبدن؛ بالإضافة إلى كونها تمثل صورة الكمال المشتبه لديه في امرأة كل عالم..

يقال في وصفها 18-: عذراء، هيفاء، تقيد النظر، من العابدات العالمات السائحات الزاهدات، شبيخة الحرمين، إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت.. شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء.. علمها عملها، عليها مسحة ملك وهمة ملك..

أما كون نمط علاقة ابن عربي بها هو نمط علاقة الكل بجزئه الواحد الفرد، فنستدل عليه من مدلولات ألفاظه نفسها، فهو يقول عنها؛ إنها يتيمة دهرها، بيتها من العين السواد، ومن الصدر الفؤاد، عهدها قديم، وكل اسم يذكره في ديوانه فهو عنها يكني، وكل دار يندبها فدارها يعني...

هذا الموقع الذي تحتله المرأة بكونها الآخر المكمل الوجودي للرجل، والشريك الوجداني أيضاً، يخضع كما رأينا لمواصفات تكوينية خاصة بالمرأة، راجعة لفطرتها وتربيتها وتوجهاتها؛ والأهم من ذلك لمستوى وعي الرجل، ورتبة عرفانه بمكانة المرأة الوجودية. ونؤكد نص ابن عربي بأن نلاحظ، أنه من آدم لم تخلق إلا حواء واحدة.

المرأة - الآخر، المنفعل الوجودي:

هنا تفارق علاقة الرجل بالمرأة حقل الحضور والوجود للآخر فقط، كما في المكمل الوجودي، لتدخل حقل الفعل والانفعال بغاية التوالد والإنتاج، فهي التوالد لابد من ازدواج الأب والأم بحركة بينهما تؤدي لوجود ثالث، هو الابن...

هنا يقارب ابن عربي المرأة لا من جهة كينونتها الإنسانية، ولا من جهة موقعها من ذات الرجل ووجدانه، بل من جهة كونها الأنثى.. إحدى مراتب الوجود. وهي مرتبة القابلية والانفعال والتأثر.. هي محل الإلقاء والبذر والاستحالات والإيجاد والتكون والظهور، فكل منفعل وقابل للإلقاء والتكون، ومحل للظهور والإيجاد فهو أنثى وإن كان ذكراً 19-.. لذا كل من في الكون أنثى، لأنه محل زرع وحرث، محل بذر وإنتاج.. يقول الشيخ في الفتوحات 20-:

إِنَّا إِنَاثٌ لِّمَا فِينَا يُولَدُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ رَجُلٍ
إِنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ الْعَرَفَ عَنْهُمْ هُمُ الْإِنَاثُ وَهُمْ نَفْسِي وَهُمْ أَمْلِي

وتستمر معرفة ابن عربي الشهودية تتصاعد في نظرتها للمرأة - الأنثى.. إلى أن يصرح في فصوص الحكم، استناداً إلى أن الإنسان لا يشهد الحق إلا متجلياً في صور الممكنات، بأن المرأة هي أكمل مشهد للحق المشهود، لأن الرجل يشهد فيها الحق من حيث هو فاعل منفعل.. فالرجل يشهد الحق في المرأة ويعبر من جمالها المقيد إلى الجمال الحق المطلق.

هذه الرؤية للأنوثة تضيف قدسية على المرأة هي بأمر الحاجة إليها في زمننا، كما أنها تزحزح القهر والظلم والاضطهاد عنها، وتوضح إلى أي مدى الإسلام مبرء من ممارسات غير واعية.

فالمرأة - الأنثى هي محل التكون والظهور لأنها القابل والمنفعل، ففيها يتكون الولد وعنها يظهر.. وهنا يعطيها ابن عربي اسم الأم، ويظهر كمالها بأنها متلقية ملقية، آخذة عاطية، منفعة عن الأب فاعلة في الابن.. وهكذا بالمرأة يمر الوجود ويستمر توالد الكون من الكون.

(المعجم الصوفي ص (145) ..)

وكون حواء هي محل التناسل وظهور أعيان الأبناء 21-، ويمر الوجود في عالم الكون عبرها، فهذا يعطيها حساً واقعياً عملياً من جهة، كما يمكنها من التحكم بنماء أي قوم أو شعب من جهة ثانية. وهذا ما خبرته قبلنا الدول الغربية، وتحاول تكيف قوانينها كأن تجعل مثلاً الأولاد من نصيب المرأة في حال الطلاق إرضاء لها، لتحريضها على متابعة جهودها في حفظ النوع الإنساني واعية تماماً أنها محل ظهور الجنس.. وأنها بتجاوز المرأة إلى الأنثوب والاستساخ إنما تقوم بمغامرة مكلفة إنسانياً.

ونمشي مع ابن عربي على طريق محمدية لنرى معه أهمية التعاليم النبوية في بناء علاقات سليمة ومجتمع سليم.. فأخر كلامه صلى الله عليه وسلم: استوصوا بالنساء.. وهو

